

ملحمة جلجاميش وعقيدة حتمية موت البشر وخلود الآلهة بحضارة العراق القديم

د. بن عبد المومن محمد*

ينطوي هذا النوع من الدراسات المتعلقة بالموت والخلود تحت تخصص يعرف باسم الإسكاتولوجيا- **Eschatologie** -والذي يصنف هو الآخر ضمن تاريخ الذهنيات **Histoire des Mentalités** -، ولم يحظ هذا النوع من الدراسات باهتمام الباحثين والسبب يعود إما لشح المادة العلمية باستثناء الحضارتين العراقية القديمة، والمصرية القديمة، أولنفورهم لمثل هذه المواضيع المزعجة التي لا تتلاءم مع الطبيعة البشرية التي تميل للتفاؤل والحياة والابتعاد عن كل ما يتعلّق بالموت، لذلك نجد ان الحضارات القديمة أوجدت أساطير وملاحم ونصوص شعرية قديمة حاولت من خلالها التعامل مع مسألة حتمية موت البشر وخلود الآلهة كحدث طبيعي، واستطاعت الوصول بشعوبها إلى عقلنة اللامعقول المتمثل في الموت وكيفية بلوغهم الخلود.

إهتم سكان العراق القديم مثل باقي شعوب الحضارات القديمة بمسألة الموت والعالم الآخر، وقد جسدوا هذا الإنشغال بخاصة في نتاجهم الفكري الأدبي عندما دَوَّنوه ضمن مجموعة أساطير نالت الشهرة الكبيرة في إمطة نظرهم لهذا الموضوع كملحمة جلجاميش(1) والألواح السومرية (*).

* أستاذ محاضر كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية قسم الحضارة الإسلامية جامعة وهران

إرتأينا من خلال هذا المقال الاستعانة بنصوص ملحمة (جلجاميش) التي خلقت للبشرية تراثاً عقائدياً مفصّلاً عن الموت والروح وعالم الموتى، ووصف العالم السفلي، من أجل الوقوف عند إحدى الجذور العميقة للفكر الديني عند سكان العراق القديم.

مفهومهم للموت والروح

يؤكد الأدب الأسطوري المدون لحضارة بلاد وادي الرافدين القديمة أن الموت ما هو إلا مرحلة من الوجود (2)، ولا تنفصل روح الميت التي كانت ملازمة لجسده إلا لحظة موته (3)، إذ يتوقف القلب عن النبض وتتعلّل كامل وظائف الجسد، هذا ما نجده ضمن ملحمة جلجاميش، في لوحها الثامن، إذ يخاطب صديقه (أنكيदو):

... ما هذا التّوم الذي استولى عليك؟

لقد أصبحت بلا وعي، إنك لا تسمعني

لكنه لم يرفع رأسه

تحسّس قلبه، لكنه لم يعد ينبض... (4)

ويكون موت البشر بانفصال الروح عن الجسد، هذا الأخير الذي يودع في القبر ليلى. واعتقدوا أن خلود الروح في عالم الأموات لم يكن يعتمد المحافظة على الجسد، بينما كان الغرض من عملية الدفن هو ضمان نزول الروح إلى العالم السفلي، وعدم بقائها تائهة غاضبة في عالم الأحياء.

وكان في مخيلة سكان العراق القديم أنّ الموت ليست بمثابة العقوبة المفروضة على الأشرار فقط، بل واقع يتعرّض له كل فرد، فالخطاب الذي وجّهه (أوتا نبشتا) (5) لجلجاميش يبيّن نظرهم للموت، إذ قال له:

"... لا أحد يرى الموت

لا أحد يرى وجه الموت

لا أحد يسمع صوت الموت

الموت ضار يحصد البشر... (6)

أفصحت بعض أسطر هذه الملحمة عن نظرة سكان بلاد وادي الرافدين إلى الموت، والمشوبة بالخوف، والكره، مردّها لا ضمان لحياة أفضل في عالم الأموات من حياة الدنيا ، وفيها يرد النص التالي:

"... الموت ضار يحصد البشر

فهل حفظنا بيوتنا للأبد...."

وفي مقطع آخر يشير جلجاميش للأثر الذي تركه فيه موت صديقه (أنكيبدو):

"... وصاحبي الذي أحببته

تحول إلى طين...

أولا سأكون مثله، وأضطجع أيضا فلا أقوم ثانية وإلى الأبد... (7).

كما يرد ضمن هذا اللوح تصوّرا واضحا لحالة الأرواح بدون قبور: "...هل رأيت من لا يوجد قبر لروحه؟ أجل لقد رأيت، أنّ روحه تأكل من حثالة الأوعية، وكسرات الخبز وفضلات الشوارع.. (8)".

لم تكن عملية الدفن بالنسبة لسكّان بلاد العراق القديم سوى طريقة تدخل الميت عالمه الجديد الذي يشبه عالم الأحياء بمدنه وأسواره، وفي اعتقادهم أنّ الموت لم يكن سوى مرحلة من الوجود نفسه (9). بذلك استخلصوا أنّه لحظة الموت ينفصل ظلّ أو طيف عن جسد المتوفى في شكل طير يشبه الميت تماما، وسميت الرّوح بالسومرية (كدم -Gidim)، وبالأكدية (أتممو -Etemmu) حيث تتحول إلى كائن آخر بشكل غامض على هيئة طائر يذهب إلى العالم الأسفل، إذ تصف لنا ملحمة جلجاميش أرواح الموتى في شكل هذا الطائر الذي ينزل من القبر ليبقى سجيناً في العالم السفلي (10).

في حين عندما يحرم جثمان الميت من الدفن، وأداء طقوس الاسترحام الضرورية، أو عند تعرّض قبره للتنبش (11)، تصبح روحه تائهة ومزعجة للأحياء، لذلك كانوا يدفنون موتاهم لضمان نزول أرواحهم إلى العالم السفلي.

لا يتوقف خلود الروح بالنسبة لهم بالمحافظة على الجسد، بل كانت عملية الدفن حسبهم لتسهيل عودته إلى الطين، وعكس ذلك يدفع بالميت إلى السقوط في العدم مثلما ورد في نفس الملحمة "...وصديقي الذي أحبت صار ترابا..". (12)

لقد أقام العزافون طقوسا للإستحضار، ومناجاة أرواح موتاهم في عالمها السفلي (13). كانت طقوسا تعتمد بالدرجة الأولى على تقديم القرابين بأنواعها، وأداء للصلوات التي كانت تنشد للميت من أجل استعطاف الآلهة ورضاها، وغالبا ما يرافق ذلك البكاء والحداد على الميت (14).

يمثل محتوى القسم الأخير من اللوح الثاني عشر من ملحمة جلجاميش مصدرا أساسيا في دراسة عقيدة حتمية الموت عند البشر باستثناء الآلهة، فلم يكن لهم ذلك التصور الخالص عن الحياة بعد الموت، وقبل التطرق لهذا الموضوع تحدر بنا الإشارة لأبطال الملحمة الذين حيكت حولهم الأسطورة.

من هو جلجاميش؟ هو خامس ملوك سلالة الوركاء الأولى، الذي أصبح بعد موته مرشدا وشفيعا للموتى في العالم السفلي، كانت تقدم له الهدايا، وترفع له الصلوات والابتهالات، تكفل أيضا بإرشاد الموتى من الملوك إلى مواقعهم الجديدة في العالم الآخر (15)، تبدأ الملحمة التي سُميت باسمه بوصفه على أنه بطل مدينة (أوروك) وملكها، ثلثة بشر وثلثاه الآخران إله فجاء وصفه على النحو التالي :

"... ثلثاه إلهي، والثلث الباقي بشري!

هيئة جسمه شامخة..." (16)

كان يقضي جلّ وقته في الصيد واللّهو والبطش (17)، وفي ذلك ورد ضمن هذه الملحمة ما يلي:

"... على دقات الطبول تستيقظ رعيته

و(كم) ثار أهل أوروك ساخطين

جلجاميش لا يترك الابن لأبيه

يقهر الشعب بالليل وفي وضح النهار...

لا يترك جلعاميش العذراء لحبيبتها

ولا ابنة البطل، ولا زوجة المحارب..." (18)

ونتيجة جبروته وتسَلَّطه، اشتكته الرعية للآلهة نتيجة تصرفاته:

"... سمع شكواهم (آنوا) الجليل

ونادوا (أورورو) العظيمة قائلين

أنت يا من خلقت ما أمر به (آنوا)!

أخلقي له ندًا يصارعه في جموح الفؤاد!

ليتنافسا في الصراع فتستريح (أوروك)!" (19)

فستجيب لشكواهم واستغاثتهم بخلق من ينافس جلعاميش، و في الشأن نفسه ورد ضمن هذه

الملحمة ما يلي :

"... غسلت (أورورو) يديها

أخذت قبضة من الطين ورمتها في البرية

خلقت (أنكيدو) الجبَّار... (20)

من هو (أنكيدو)؟ تروي الملحمة أنه كان يعيش في الغابة، يأكل الأعشاب، ويشرب الماء مع

الحيوانات، التي يقوم بفكِّ وثاقها من المصائد التي يبنيتها الصيَّادون، لذلك اشتكوه لجلعاميش الذي لجأ إلى

حيلة تتمثل في اصطحاب الصيَّاد بإحدى خادמות المعبد لعلها تغريه بجمالها، لتجعل منه متمدِّنا، والملحمة

تصف لنا ذلك:

"... إذهب يا صيَّاد وخذ معك بغيا

فإذا ما اقترب الوحش البري (أنكيدو) ليرد المرء

فجعلها تخلع ثوبها، وتكشف عن فنتها

وما أن يقع عليها بصره، حتى يقترب منها

لكن حيواناته ستتكبره، وهي التي تربت معه في البرية..."

وقع الوحش (أنكيديو) في شباك مفاتن خادمة معبد الإلهة (عشتار)، التي تدعى (شامات)، فبدأت بتعليمه الحياة المدنية، كطريقة الأكل، والشرب، واللبس، وفيما يلي وصفا لحالة (أنكيديو) المتوحش الذي أصبح مثل الرجال المتمدنين:

"... لا يعرف كيف يؤكل الخبز

ولا يفهم كيف يشرب الشراب المسكر

فتحت البغي فمها وقالت لـ (أنكيديو):

كل الخبز يا (أنكيديو) فهو زاد الحياة

وأشرب من الشراب المسكر فهي عادة البلاد...

أرتدى ثوبا، فبدى كالرجال..." (21)

عند سماعه عن ظلم ملك (أوروك) (22) قرّر منازلته، فبدأت المعركة بينهما لكنّ الإلتصار كان حليف جلعاميش، فتعانقا وقبّلا بعضهما البعض وعقدا بينهما حلف صداقة لمواجهة وحش يدعى (هومبابا) أو (خمبابا) الذي كان يربط بالغابة، وعند وصولهما قاما بقطع الأشجار، ليظهر أمامهما هذا الوحش الذي سيهزم على يديهما، ويقطعا رأسه رغم توسلاته (23).

داع صيت جلعاميش بعد حادثة مقتل الوحش (هومبابا)، لذلك تقرّبت منه الإلهة (عشتار) التي عرضت عليه الزواج، لكنه رفض طلبها و نعتها بأفبح النعوت، تأثّرت كثيرا بكلامه، فطلبت من والدها (آنو) إله السماء أن ينتقم لها بإرساله ثورا مقدّسا من السماء لكنّ (أنكيديو) استطاع القضاء عليه (24)، وحول الحادثة ورد في الملحمة النص التالي:

"... إعطني ثور السماء، ليقتل جلعاميش..."

قفز (أنكيديو)، وأمسك الثور السماوي من قرنيه...

و بعد أن قتلا الثور السماوي انتزعا قلبه...." (25).

وتذكر الملحمة اجتماع مجمع آلهة العالم السفلي الذين قرّروا موت (أنكيڊو) لما فعله بالشّور المقدس، لأنهم لم يستطيعوا إقرار موت (جلجاميش) (26) بحكم ألوهيته من جهة أمّه الإلهة (27)، فبدأت الشّياطين بنشر الأمراض في جسم (أنكيڊو) حتى موته، فحزن عليه (جلجاميش) حزنا دفع به إلى الاحتفاظ بجثته ورفض دفنها، وما أن بدأت الدّيدان تخرج منها حتى اضطر لدفنه، ثم انطلق في البرية تاركا ملذات الحياة، وارتدى جلود الحيوانات، وظلّ موعدا الموت يراوده، ومن جملة ما ورد ضمن ملحمة (جلجاميش) ما يلي:

"... أي صديقي؟ ما الذي جعل الآلهة الكبار يجتمعون للتّشاور؟

استمع إليا لتعرف أي حلم عجيب رأيته اللّيلة الماضية

اجتمع (آنو)، و(إنليل)، و(إيا)، و(شمس السّماوي)، للتّشاور بينهم وقال: (آنو) ل

(إنليل):

لأنهما قتلا الثور السماوي

كما قتلا (خمبابا)

فينبغي أن يموت منهما"

وورد ضمن النص أن مجمع الآلهة قرّر مايلي:

"... لكن (إنليل) قال: (أنكيڊو) هو الذي ينبغي أن يموت، أما جلجاميش فلا ينبغي أن

يموت..." (28).

وبالتالي الموت ليس عقوبة، وإنما حقيقة حتمية تشمل جميع البشر مهما كانت منزلته في الحياة.

- رحلة البحث عن الخلود :

ورد ذكر عقيدة الخلود في اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجاميش، حيث صور بنوع من

التفصيل هذه المسألة ضمن الحديث عن الطوفان وآثاره في البرهنة عن الخلود.

ولكي يصل (جلجاميش) إلى سرّ الخلود، تذكر الملحمة أنّه كان عليه أن يلتقي ب: (أوتا نبشتا)

الذي استطاع فيما سبق تحقيق سر الخلود، لأنه امتثل لأمر الإله (إيا) الذي أنبأه وهو نائم بأنّ الآلهة وعلى

رأسهم (إنليل) الجبار شاءت أن تبعث الطوفان على الجنس البشري، وجاء نصّ صوت الإله (ايا) الموجّه لـ: (أوتا نبشتا) ببناء السفينة، وبانتهاء الطوفان وعودته إلى بلده، قدّم القرابين للآلهة التي منحته الخلود (29).

أثناء بحث (جلجاميش) عن سرّ الخلود، يلتقي بـ: (سيدوري) إلهة النبيذ التي تقوم بنصحه وإرشاده قائلة له:

"... إلى أين تمضي يا جلجاميش؟

إن الحياة التي تبحث عنها لن تجدوها!

فعندما خلقت الآلهة البشر

قسّمت للبشر الموت

واستأثرت في أيديها بالحياة..."

ثم يسألها عن كيفية الوصول إلى (أوتا نبشتا) وما هي علاماته، قائلاً:

"... والآن أيتها الساقية، أين الطريق إلى (أوتا نبشتا)؟

ما هي علاماته؟ دلّيني، دلّيني على علامته

لأعبرن البحر إليه لو استطعت..."

وعند التقائه (بأور شنابي) ملاح سفينة (أوتا نبشتا) طلب منه أن يوصله إلى سيّده قائلاً له:

"... والآن قد رأيت وجهك يا (أور شنابي)

دلّني على (أوتا نبشتا)..."

ركب (جلجاميش) السفينة التي يقودها (أور شنابي)، وعند التقائه بـ (أوتانيبشتا) طرح عليه السؤال

التالي:

"... قل لي كيف دخلت مجمع الآلهة ونلت الحياة الخالدة؟

فأجاب (أوتا نبشتا) جلجاميش وقال له:

يا جلجاميش سأبوح لك عن سرّ خفي محبوب...

وسأنبئك بأمر مجهول

هنالك نبتة تشبه الشوك

وهي وردة يخز شكوكها يدك

إذا توصلت بذاك لهذه النبتة

وجدت الحياة الخالدة ... " (30)

بعد سماع ما قاله (أوتانبشتا) عن هذه النبتة السحرية (**) الموجودة في عمق البحر، حتى قرّر البحث عنها وإحضارها ليخلد، وعند وصوله إلى مكانها ربط برجليه أحجاراً ثقيلة ليتمكن من الغوص حتى الأعماق (31)، واستطاع أن يصل إليها، وفي طريق العودة إلى مدينته (أوروك) توقف بجانب بركة ماء، فوضع النبتة على ضفتها ثم دخل للاستحمام، وفجأة جاء ثعبان فابتلعها، ليتغير جلده القديم بجلد جديد، ولم يبق أمام (جلجاميش) سوى الحسرة والبكاء، وعند وصوله إلى مشارف مدينته (أوروك) رأى ما شاهده في السابق من أسوار، فاستخلص أن خلود البشر يكمن في البناء والتشييد، وإعلاء الأسوار، لأنّ البشر فانون، أمّا الآلهة فهي التي تخلد.

الهوامش :

1) ملحمة جلجاميش هو الاسم الذي اختاره رجال الأدب لهذه الملحمة الشعرية القديمة، وهي تشكل أصالة الأدب العراقي القديم، وتعتبر أطول وأكمل ملحمة عرفتتها حضارات الشرق الأدنى، وما تزال خالدة وذات جاذبية إنسانية عامة في جميع الأزمان والأمكنة، والسبب في ذلك أن قضاياها الكبرى التي وردت بها لا تزال تشغل فكر الإنسان كفكرة الحياة والموت وما بعد الموت والخلود. ويرجع الفضل في اكتشاف ألواح هذه الملحمة إلى المنقبين الهاويين أوستن هنري، وهرمز رسام، وجورج سميث خلال عامي 1839-1853م في خزانة كتب الملك الأشوري بانيال (668-626 ق.م) في مدينة نينوى، غير أن أهمية هذا الاكتشاف تم التفتن إليه إلا في عام 1872م حين أعلن جورج سميث اكتشافه لخبر الطوفان في محاضرة ألقاها على الجمعية الأثرية في لندن. وتتألف نصوص الملحمة من اثني عشر لوحا كل منها موزع إلى ستة حقول ويتضمن كل لوح منها إلى 300 سطر باستثناء اللوح الثاني عشر الذي لا يشكل هذا المقدار. وقد وردت بخصوص هذه الملحمة أنها تشكل من الناحية الفنية وحدة متكاملة ولاسيما في آخر نسخة لها من القرن السابع ق.م ينظر: طه باقر، ملحمة كلكامش، مومف للنشر، الجزائر، 1995، ص XI-XIII؛ فراس السواح، جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة، منشورات دار علاء الدين، دمشق، 1986، ص 41

*هي ألواح من الطين المفخور دوّنت عليها حاجات و متطلبات السومريين، شملت مجالات متعددة منها الاجتماعية، الإدارية، والدينية، وتم الكشف عن القسم الأعظم منها في التنقيبات الأثرية التي أجريت في عامي 1889 و1900 في مدينة "نقر" العراقية، وتوجد غالبتها في متحف جامعة "فيلادلفيا" بالولايات المتحدة الأمريكية، وبتحف الشرق القديم في مدينة "إسطنبول" بتركيا، وبتحف البريطاني، وبتحف اللوفر بباريس، وبتحف برلين. ينظر: صمويل نوح كريم، من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، مكتبة المثنى، بغداد، 1956، صص 24-25

- (2) جان بوتيرو، بابل والكتاب المقدس، ترجمة روز مخلوف، دار كنعان، دمشق، 2000، ص. 174
- (3) تدعى بالسومرية [كدم - Gidim]. ينظر: نائل حنون، الحياة والموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة، بحث في المعتقدات الدينية والأساطير القديمة، دار الخريف للنشر والتوزيع، دمشق، 2006، ص. 212
- (4) جان بوتيرو، بابل والكتاب المقدس، ص 174؛ نائل حنون، المرجع السابق، ص 204

- (5) هو ملك مدينة "شوريياك" ، أخبره الإله " إيا " بقرار مجمع الآلهة المتمثل في تسليط الطوفان العظيم على الأرض، فبنى سفينة حمل على ظهرها أزواجاً من الحيوانات، وبعد ستة أيام رسا وأطلق ركابه ، فتَمَّت مكافأته بنعمة الخلود . ينظر: فراس السواح ، جلعاميش، ملحمة الرافدين الخالدة، ص38
- (6) نائل حنون ، الحياة والموت ...، ص 202
- (7) نفسه ، ص 204
- (8) خزعل الماجدي، بخور الآلهة، دراسة في الطب والسحر والأسطورة والدين، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان 1998، ص359.
- (9) جان بوتيرو، المرجع السابق، ص.174.
- (10) خزعل الماجدي، بخور الآلهة...، ص228.
- (11) جان بوتيرو، الديانة عند البابليين، ترجمة وليد الجادر، جامعة بغداد، بغداد، 1970، ص174؛ نائل حنون، الحياة والموت...، ص.204.
- (12) طه باقر ، ملحمة كلكماميش ، ص77
- (13) خزعل الماجدي ، المرجع السابق ، ص360.
- (14) نفسه، ص360.
- (15) نائل حنون ، الحياة والموت ، ص 243
- (16) ملحمة جلعاميش ، ترجمة عبد الغفار مكاوي ، راجعها عن الأكاديمية عوني عبد الرؤوف، ذات السلاسل، الكويت، 1994، اللوح الأول ، ص 70
- (17) فراس السواح، المرجع السابق، ص.162
- (18) ملحمة جلعاميش ، المرجع السابق ، اللوح الأول، ص 71.
- (19) نفسه ، ص ص 71 ، 72
- (20) نفسه ، ص 72
- (21) نفسه، ص89.
- (22) نفسه ، ص 89
- (23) طه باقر ، المرجع السابق ، ص 33
- (24) نفسه ، صص 42، 43
- (25) ملحمة جلعاميش ، ترجمة عبد الغفار مكاوي ، ص 140

- 26) نتيجة زواج أمه المؤهلة من والده البشري، أدرك أنه يمتلك جزءاً فانياً بذاته، لذلك علم أنه لن يخلد .
- 27) "... في تلك الليلة رأى أنكيديو حلماً في منامه، فلما أتى النهار غمض وقص حلمه على صاحبه :
- يا صديقي أي حلم عجيب رأيت الليلة الماضية... رأيت مجلس الآلهة [أنو] و[انليل] و[ايا] و[شمس السماوي] قد اجتمعوا يتشاورون فقال أنو لانليل: لأتقنا قتل الثور السماوي، وقتلاً [حباباً] سيموت ذلك الواحد من الإثنين، ذلك الذي اقتطع أشجار الأرز. فأجابه [انليل] إن أنكيديو هو الذي سيموت أما جلعاميش فلن يموت...". ينظر: خزعل الماجدي، إنجيل بابل، منشورات الأهلية للنشر والتوزيع، عمان 1998، ص 224.
- 28) خزعل الماجدي، إنجيل سومر، منشورات الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1998، صص 214-217 خزعل الماجدي إنجيل بابل ، صص 224-225
- 29) أ.كوندارتوف، الطوفان العظيم بين الواقع والأساطير، ترجمة د. عدنان عاكف حمودي، دار وهران للطباعة والنشر، دمشق ، 1986، صص 42-43
- 30) ملحمة جلعاميش، ترجمة عبد الغفار مكاوي ، ص 209
- * *) تدعي كذلك "عودة الشيخ إلى شبابه. ينظر: ملحمة جلعاميش، ترجمة عبد الغفار مكاوي، ص 210
- 31) يصف خزعل الماجدي غوص جلعاميش في أعماق البحر، والتقاطه النبتة إلى الغوص داخل مكونات الرحم، والعثور على بيضة الحياة، وسر الحياة، أما استحمامه بعد الغوص، فالمراد بذلك التخلص من أوساخ الدنيا، ودخوله إلى المياه يشكّل رمزياً العودة إلى الرحم، وتحولّه إلى جنين بداخله. ينظر: خزعل الماجدي ، إنجيل بابل، صص 248-249